الافاضل اذ كان دارساً في دير القطارة وهو حضرة الاب بطرس قيطو اللبناني كان مصاباً بداء النقطة اخذ قليلاً من تراب ضريح الاب نعمة الله الحرديني متبرّكاً به فاذ وافتهُ يوماً نوبة دائهِ وظنّ الحاضرون انها تكون القاضيــة اذ ظهر لهُ رجل الله وشفاهُ تاماً وعاين شفاءهُ الاب الفاضل الخورفسقوفس ارسانيوس الخوري رئيس مدرسة مار يوحنا مارون حالياً وحضرة القس مبارك المتيني المار ذكرهُ. والذي نال هذه النعمة هو اليوم في بيروت يقصّ الآية على كل من يريد تفاصيلها ويشكر فله ما منَّ به عليهِ بشفاعة احد اوليائهِ. ولدينا غير هذا من المعجزات التي جرت مع متناولة ودروز وغيرهم. وفي ما اثبتنا كفاية ونحن نتمنى ان يطلب الرهبان البلديون من الكرسي الرسولي ان يعهد الى من يوثق بهم فحص حياة رجل الله واعمالهِ الصالحة ومعجزاتــهِ المقرَّرة لكي يثبتوا بنوع قانوني براءتهُ

صناعة النجارة في المشرق

بحث تاريخيّ وعمليّ (لاحق بسابق راجع الصفحة ٨٦)

للاديب يوسف افندي غنّام ثابت

٣ النجارة الشرقية في القرون المتوسطة

لقد اثبتنا في مقالتنا السابقة تقدُّم النجارة في الاعصار الاولى وسنعمل النظر الان في القرون المتوسطة الى غاية عهدنا هذا ونبسط الكلام في فنونها الدقيقة وكيفيَّة العمل فيها فيما بعد ان شاء الله تعالى

نقول ان للمجدّ الباحث عن آثار النجارة في القرون المتوسّطة شواهد عيانيَّة ورسوم عديدة وكتابات تاريخيَّة مجيدة. فاما الرسوم والكتابات فهي عبارة عن مجموعات كبيرة وتآليف تاريخيَّة ومجلات علميَّة كثيرة يتحرَّى نشرها جماعة من ذوي الفضــل والعرفان من نخبة الرجال وكبار العلماء الاوربيين في هذا الزمان والشواهد العيانيَّــة هي الآثار الباقية في البلاد وسنأتي بذكرها بعد الفراغ من وصف الرسوم والتآليف المشار اليها التي تأخذ بألباب كلّ من يجيــل فيها طرفهُ فلا يعود يتمالك عن مديح الرجال الفطاحل والمستشرقين الافاضل الذين قاموا بهذه الاعمال المأثورة بل يزيد على كلامنا اطراء ووصفاً اذا ما رأى اتقان طبع هذه المجلدات الضخمة وشاهد ألوانها المتعددة الزاهية

وحسن ورقها النقي الصقيل وجودة رسمها اذ لا ترى العين صورة الّا بُهتت من رُوعها. وزد عليهِ انَّ كلاً من هذه الكتب يحتوي عدداً وافراً من الصور التي تمثل لنا رسوم ادق ما وجد من الفنون الشرقيَّة على اختلاف انواعها ومن جملة ما تتضمَّنهُ رسوم عديدة من سائر اشغال التجارة كالخيط والنسيجاء (الموزاييك) والحفر الناقر والنقش العربي الناعم وفنون الشبكيَّات المخروطة والتخريم بالمنشار والتطعيم بالخشب الملوَّن والترصيع بعرق اللؤلؤ والاسلاك المعدنيَّة الى غير ذلك من الفنون التي يفتخر بها صنَّاع بلادنا ويعلون قدراً على من سواهم لما حوتهُ من الهندسة الرائعة التي تأخذ بالابصار وتفتن الالباب وتقضي بالعجب العجاب

وممَّا يُطرأ من مزايا هذه المجموعات والرسوم الغرَّاء تحرّي اصحابها ذكر البلاد والامكنة والمتاحف التي تحتويها وأُخذت منها هذه الرسوم وتاريخها الى غير ذلك من الفوائد الجليلة التي تنبئنا بانَّ التجارة دامت زاهية على كرور الاعصار . ولكي يدرك القارئ جلالة قدر هذه التآليف ونفاستها مع علوّ مقام الرسوم والفنون الشرقيَّة عند الاوربيين وشغفهم بها نذكر هنا بعضاً منها واولها تأليف پريس دافان في النقش العربي (Prisse d'Avesnes : *La décoration arabe*) يُباع بالف فرنك ولهُ مختصر يُباع بمئة وخمسين فرنكاً وقد اشتهر ايضاً تأليف كولينو دي بومنت في الزَّين العربية (Collinot de Beaumont : *Les ornements arabes*) بمئة منة فرنك وتأليف بورغوان في اصول الصناعة العربيَّة (J.Bourgoin : *Les éléments de l'art arabe*) وتأليف غايه (Al. Gayet) في صنائع العرب وغير ذلك ممَّا يطول شرحهُ

فللهِ درّ هؤلاء الرجال ما اعلى كعبهم كيف عرفوا ان يزيّنوا العلم بالعمل وجنوا ثمرة اتعابهم وخلدوا لنا ذكر مهرة الصنَّاع واشغالهم البديعة بحيث لا تمحوهُ كرور الاعصار . وعليهِ فقد وجب هنا على كل شرقي طُبع على معرفة الجميل والفضل واجبٌ المعارف والفنون ان يبدي ابهى الشكر ويرفع اجل المديح والثناء لمقام المستشرقين العلماء ويحمد همهم العالية الشماء اذ لا يزالون يعنون بحفظ آثار بلادنا وصيانتها في متاحفهم او نشرها بالطبع في مضامين مصنَّفاتهم ومجلَّاتهم العلميَّة التي انشأوها للبحث عن الاثار الشرقيَّة

فهذا بعضٌ من عدّ اقتبسناهُ بعد تقليب بضع صفحات من التآليف الغراء المشار

اليها التي جمعتها ادارة المكتبة الشرقيَّة في كليَّة القديس يوسف الزاهرة الناشرة اضواء مصابيحها في بلادنا الشرقيَّة وهو كافٍ لاثبات غرضنا

٤ في آثار النجارة القديمة في بلادنا

لمَّا كانت آثار البنايات الرفيعة الشان متعددةً في بلادنا وكثيرٌ منها مما سلم من العوادي المتلفة لم يزل ماثلًا ينطق لسان حاله بما نروم وكانت اغنى البلاد بهذه الآثار مدينة الفنون السوريَّة والتحف الخطيرة دمشق الشام رأينا ان نقدم ذكرها على سائر البلاد. فاذا ما دخلنا الفيحاء وتناولنا القلم هبطت علينا آيات البلاغة وجرى الحبر كالسيل على القرطاس وتمثَّلت لنا صور المعاني وبدت كالجرائد الحسان قائلةً : « صِفْنا فتخلِّد لنا ولك على الدهر ذكرًا طيبًا يدوم مدى الازمان »

فاول ما يخالج قلبنا الشوق والحنان اذا حللنا ربع دمشق الى زيارة جامعها الاموي وقد ألمعنا الى بعض وصفهِ فيما سبق ففي هذا الجامع الطالع في سماء الصنائع كالكوكب اللامع ترى فنون النجارة الشرقيَّة الدقيقة بانواعها كالفسيفساء والخيط والنقش على تعدد انواعهِ والمقرنص والشبكيَّات (الشعريَّات) والتطعيم بعرق اللؤلؤ والاسلاك المعدنيَّة وكل ذلك مصنوع باتقان بديع وهندسة رائعة وهندام واحكام لم يبقِ لآخر من مزيد

ثم اذا بحثت عن البيوت القديمة فيها التي حوت شيئًا من هذه الآثار فاول ما ينعت لك بالاوصاف الجميلة الغراء بيت عبد الله اسعد باشا العظم وهو عبارة عن بناء كبير واسع الارجاء فيهِ مئات من الغُرف وقد ازدان بعضها بمحاسن كثيرة من طُرف هذه الصناعات الشرقيَّة التي نحن بصددها. وكذلك يوصف بمثل هذه الغرر بيت شمعايا اليهودي. وعلاوةً على ذلك ان في هذا البيت قاعةً فسيحة صُفِّحت جدرانها بالخشب المزيَّن بضروب الفنون ومما امتاز فيها الترصيع باللؤلؤ فهو بالغ حدَّ الاعجاز واجمالًا فان اشغالها تعدُّ في اعلى مكان من البراعة والتفنن ولا مزيد عليها مهما سخت النفس وجادت على العتبة بالعطاء. واعلم ان هذين البيتين من اقدم بيوت دمشق وجميع السيَّاح الاوربيين يتهافتون الى زيارتهما ويحزجون معجبين مفتونين ببراعة الدمشقيين الاقدمين وحذاقتهم

ومما يزيد هذه الاشغال حسنًا على حسن وبجمالها تفوق كل فنّ براعة توشيتها بالذهب الابريز وحسن صبغها بالالوان الزاهية المتناسبة الاشكال الحسنة الادماج بحيث تأخذ روعةً من البهاء والجمال لا ضريب لها

هذا وقد اقتصرنا عن وصف باقي مباني دمشق الفخمة ومساجدها البهيَّة القديمة غير اننا نقول انهُ لم يخلُ جيل او يمرّ عام دون ان يشاد فيهِ في حاضرة دمشق الشام بناء رفيع الذكر يزدان بمحاسن النجارة الشرقيَّة واذ كان تعدادها مما يبعث على الملل فنكتفي بذكر اقونسطاس الكنيسة المريميَّة للروم الاورثذكس وهو قديم جداً والكنيسة البطرسية للروم الكاثوليك الَّا ان الاشغال في هذه الكنيسة هي حديثة العهد قام بها الاستاذ البارع جرجي بيطار الذي تغني شهرتهُ عن مدحهِ. والآن نكتفي بما ذكرناهُ عن دمشق وان كان يسيرًا وفي املنا ان نعود اليها مرَّة ثانية ونلقي نظرنا على اسواقها لنصف مصنوعاتها الحديثة ونطرىَ بالمديح والثناء من يستحق ذلك من صنَّاعها

ومن المدن التي اذخرت لها اسماً جليلاً في الصناعة مدينة حمص وهي من اعرق المدن في القدم بهذه الاصقاع وقد قام فيها على توالي الاعصار عدة بنايات انيقة قد اقتضت لها من اشغال النجارة ما يليق بتلك المباني. ولنا في هذه المدينة اثر بديع صبر على آفات الزمان لا يسعنا الاضراب عنهُ وهو اقونسطاس كنيسة مار يوحنَّا المعمدان للروم الاورثذكس. وهذا الاقونسطاس جامعٌ لضروب الصناعة الخشبيَّة الدقيقة بانواعها تام الهندسة والاتقان لا يستطيع احد في هذا العصر ان يتقلدهُ ومما قد تفرَّد فيهِ هذا الاقونسطاس هو ان سائر تصاويرهِ مصنوعة من الخشب ومحفورة فيهِ حفرًا نافرًا وموشَّاة بالذهب والالوان البديعة المشرقة لكنَّ يد الدهر قد ابات هذا الأثر النفيس فنُزع من الكنيسة المذكورة منذ سنتين واستبدل باقونسطاس آخر جديد لا يماثل الاوَّل في اتقانهِ الفائق. وقد قيل لي ان الاقونسطاس السابق كان لقدمهِ اصبح لا تعمل فيهِ النار. ولا اعلم ما في هذا القول من الصحَّة

ولنتنوَّه بهذا المقام بذكر حلب ومحاسن بناياتها ومساجدها العريقة في القدم ولاسيما قلعتها وابوابها ونواقدها وجسرها النقَّال البديع الصنع منذ القديم. اما بلاد مصر والاستانة والصعيد والمغرب والاندلس والعراق والهند فانها كلها تحتوي شيئاً كثيرًا من هذه التحف نكتفي بالاشارة اليها خوفًا من الاطالة واكتفاء بما هو مشهور عن براعة اهلها في الصنائع والفنون

ولنثب الان الى مسقط الرأس لبنان ونشكر للاب هنري لامنس الذي عرَّفنا بمقالتهِ آثار لبنان بكثير من مبانيهِ الشائقة وكنائسهِ القديمة التي بنيت بازمان متتالية

فاغنانا عن ذكرها . وممَّا يُروى عن آل تنوخ ومن في قريتي اعبيه وصليما وقصبة دير القمر ومبانيهم الفخيمة يظهر ان هذه البنايات كانت متقنة جدًّا وتاريخ بنائها لا يقل عن ستمائة سنة وبالضرورة ان نجارتها كانت من طرز تلك المباني

وقد عرفنا ايضاً من تاريخ بيروت لآل تنوخ الذي نشره حضرة مدير هذه المجلة ان بعضاً من الامراء التنوخيّين كانوا من حذّاق العملة في صناعة النجارة ولهم فيها آثار بديعة عدَّد بعضها وفت محاسنها صالح بن يحيى صاحب التاريخ المذكور . وقد اشتهر بينهم : الامير عز الدين جواد بن علم الدين سليمان المتوفّى سنة ١٣٥٧ واخوهُ الامير ركن الدين وكان هذا ايضاً كاتباً بارعاً . والامير زين الدين صالح ابن ناصر الدين المتوفّى سنة ١٣٧٧ . والامير بدر الدين موسى ابن الامير زين الدين صالح وهذا كان بارعاً في الصياغة فضلًا عن النجارة وقد اخذ هـذا الفن عن عزّ الدين جواد وكان يطبع الفضة طبعاً (بصماً) ويرصعها بالميناء . ومن تعريف صالح بن يحيى لاشغال هؤلاء في النجارة نستدل على ان امراء القرون السالفة لم يأنفوا من مزاولة الصنائع بل يفتخرون باتقانها

ومن الاماكن التي حوت في لبنان شيئاً من النجارة يستحق ان يُنظم في تُحَف الصناعة اقونسطاس كنيسة مار الياس شويًّا وخصوصاً سراية بيت الدين التي شيَّدها الامير بشير الشهير في اواخر القرن الثامن عشر وعليه فلنتمم بها النظر قليلًا ونتأمل في مشهدها البديع الفتان لانَّ صاحبها قد اعتنى فيها اعتناء فارطاً فظهرت ابدع سراية أُنشئت في هذه الاقطار ليس يوجد نظيرها في بلاد الشام بحسن البناء والنقوش والزخرفة وقد قام في بنائها اشهر المعلمين الذين استدعاهم الامير اليها من حلب والشام وسائر بلادنا ففي هذه السراية كانت اشغالٌ بديعة من النجارة استرسل الشعراء في وصفها فقد كانت بعض سقفاتها من الخشب محفورة حفرًا بديعاً ومموَّهة بالذهب على انهـا كلها لم تدُم مديدًا بسبب العوادي الطبيعيَّة التي تعتري الخشب ولاسيما اذا كان مغطىً بطبقة ثخينة من التراب وتنهال عليه الامطار . غير ان هذه الآثار لم تمحَ كلها بل يوجد منها شيء كثير في السراية الداخلية المعروفة بسراية الحريم ومقصف الامير امين وشيء يسير في مقصف الامير قاسم وهذان المقصفان هما عبارة عن دارين كبيرتين تملَّكهما سيادة المثلث الرحمات المطران بطرس البستاني وفي احداهما كرسي ابرشية صيداء ودير القمر . وفي نفسنا ان نعود الى وصف بيت الدين بمقالة مستقلة ونبيّن فيها اشياء كثيرة لا يسمح لنا المقام بذكرها هنا

وان سرحنا الآن ابصارنا في بيروت وجدنا انَّ اكثر عادياتها الخشبية قد ذهب بها الزمان. واهمّ ما وقفنا عليه من اعمال النجارة القديمة بعض ابواب ذات طرز قديم جدًّا تعرف عند اهل الصناعة بالخشّاة والمحجّرة وخزائن في البيوت لا تخلو من بعض الزخرفة

امَّا كنائسها فلا تخلو ممَّا يستحق الذكر منها كنيسة النبي الياس للروم الكاثوليك فانّنا اذا وقفنا بازاء بابها الكبير وجدناهُ محفورًا ذا عروق حسنة وفي داخل الكنيسة مذبحان بديعان قد أُسندا على عمد الكنيسة وهما جميلان جدًّا أُحكمت هندستهما لكنَّ صانعها لم يتقن حفرهما كثيرًا . وكذا قُلْ عن منبر الخطابة وسلَّمه. اما اقونسطاسها البديع فلا نتعرَّض لوصفهِ لكونهِ مصنوعًا من الرخام وبعض الاحجار الملوَّنة . ومنها كنيسة ماري جاورجيوس للروم الارثدكس وهي تحتوي من الآثار الخشبية البديعة ما لا يُرى في غيرها من ذلك وهو اقونسطاسها المقدس الذي قام بصنعهِ المعلم وهبه النجار الدمشقي والد مطران طرابلس على الروم المتوفّى منذ نيف وعشرين سنة(١ وتاريخ صنع هذا الاقونسطاس معروف ممَّا كُتب عليه بالعربية واليونانية ايضًا: « قد كمل هذا التمثال والاقونسطاس سنة ١٧٨٣ مسيحية في شهر اذار في رئاسة المطران كير مكاريوس ووكالة الشيخ يونس نقولا . . . » .

فهذا الاقونسطاس قد حوى من فنون النجارة ابدعها واروعها منظرًا كالحفر الجميل والتخريق النحيف والمشبكات اللطيفة والمقرنص الملوكي الفخيم والتاجات الجميلة وجميع فنون هذه الصناعة المشرقية الحائزة اعلى طبقات الكمال والجمال والاحكام في مقابلة الرسوم بعضها لبعض ولا سيَّما في براعة التمثيل وفخامة المنظر وجلالتهِ بحيث جاء لائقًا بالمقام الديني الشريف وهو مزدان برسوم عديدة مسيحية تنبئ بسموّ عقل وحذاقة صانعهِ واتّساع معارفهِ وتضلعهِ بالهندسة والصناعة وكنَّا حاولنا ان نأخذ رسم هذا العمل البديع لننشرهُ في المجلَّة ونجعلهُ كمثال لصنَّاع بيروت يحذون حذوهُ ويقتبسون من هندستهِ الشرقية فحالت دون مرغوبنا عوائق لم نكن لننتظرها والله موفّق لكل خير (ستأتي البقيَّة)

---

١) قد اخبرني بهذا جناب المتواجا دمتري طرزي التاجر الشهير بالمصنوعات الشرقية عمومًا والنجارة خصوصًا . ومما افادني ايضًا: « ان الروم كانوا يتبرون سابقًا ولا يزالون الاقونسطاسات والهياكل الخشبية ذات العرف الطيب اكثر من الاقونسطاسات المصنوعة من الرخام والاحجار الجيرية » راجع ايضًا مقالة الاب لامنس في الأرز واستعماله قديمًا في المعابد والمباني المقدسة (المشرق ٤: ٦٣٠)